ثقافة الناشئ
مسلمون أوائل
٦

عبد الودود الأمين

حبيب رسول الله (ص)
زيد بن حارثة

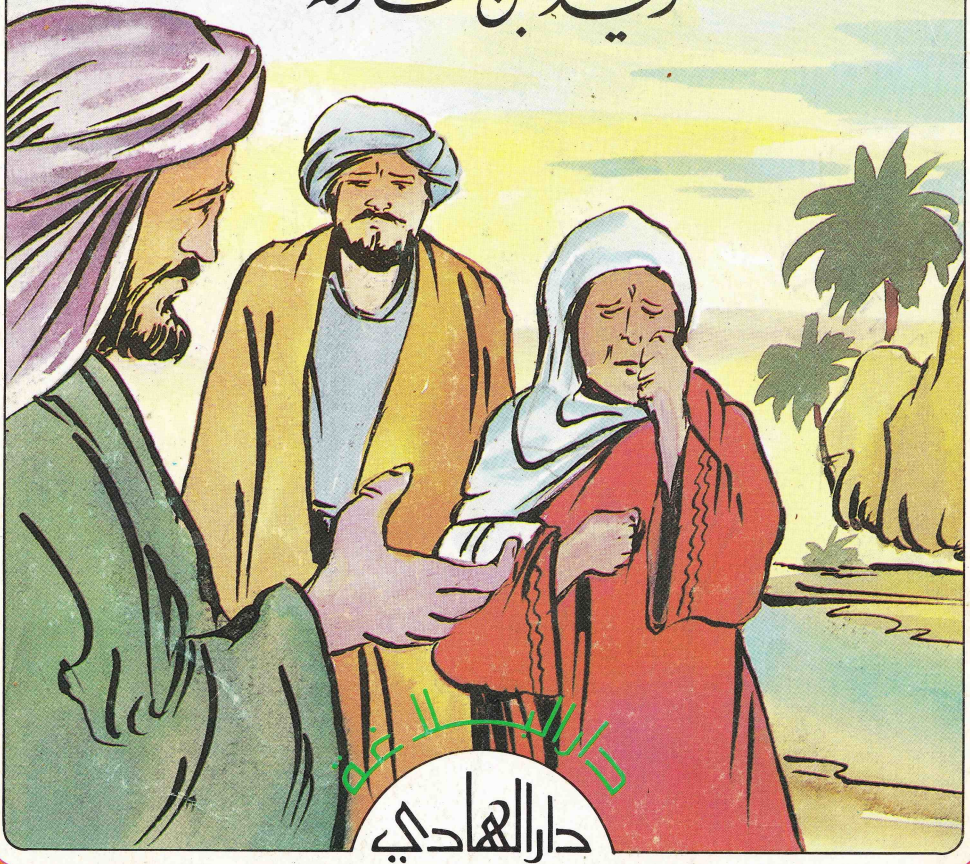

دار البلاغة
دار الهادي

PDF مكتبة نرجس
www.narjes-library.blogspot.com

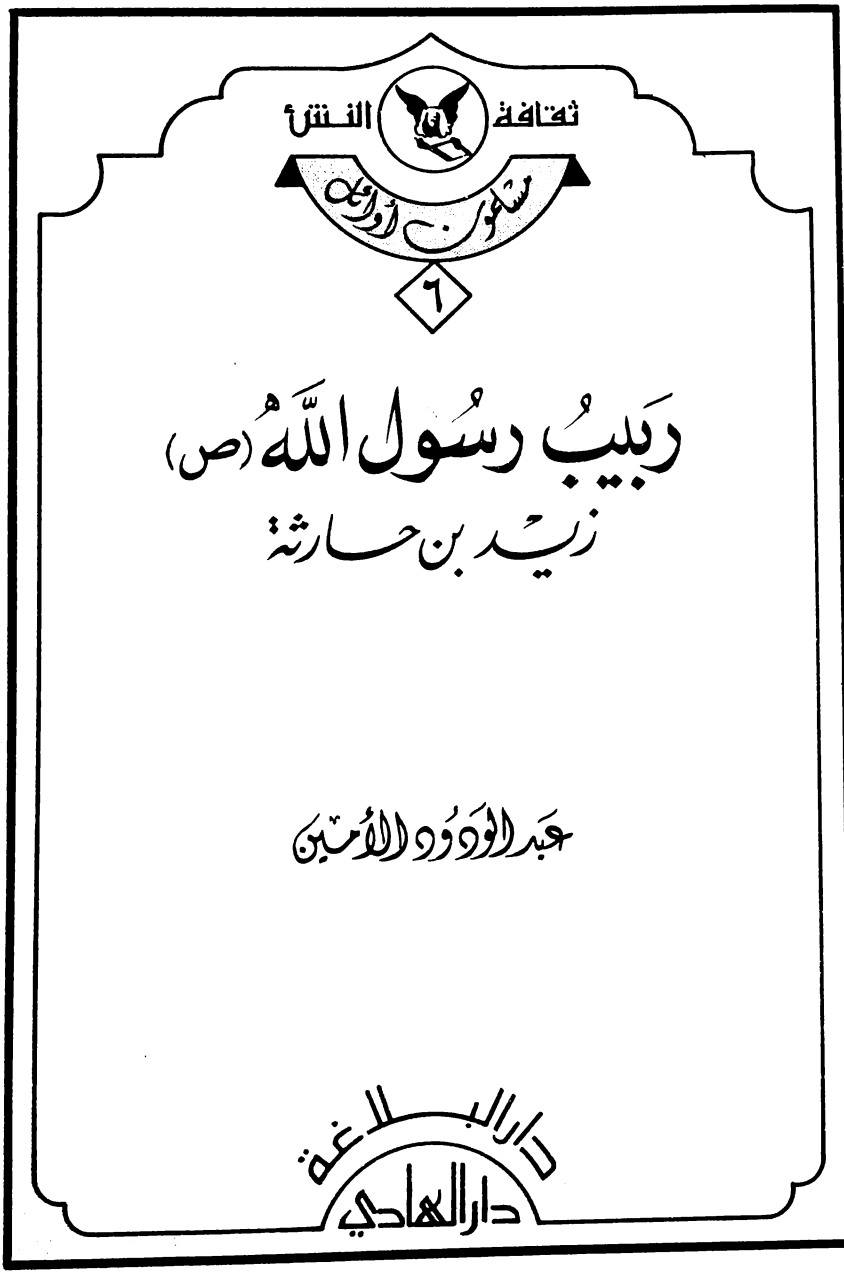

ثقافة النشء

مسلمون أوائل

٦

ربيب رسول الله (ص)

زيد بن حارثة

عبد الودود الأمين

دار البلاغة
دار الهادي

بسم الله الرحمن الرحيم

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الهادي - دار البلاغة - للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون وفاكس: ٨٣٤٢٦٥ - ٣١٢٤٢٥ - تلكس ٢٠٧٧٧ MCS - ٢٢٥٩٧ بلاغ.

ص.ب: ٢٥/٢٨٦ + ٢٥/١٦ غبيري - بيروت - لبنان.

رسوم: جمال درويش

ذات صباح أطلَّت فيه شمسٌ دافئة على صحراء الحجاز ، وتمطَّت ، في وهج أشعّتها الرمال الناعمة كمن يفيق من حلمٍ جميلٍ . في هذا الصباح ، حملت رمال الصحراء على راحتها قافلةً صغيرةً انطلقت من مضارب بني كلب ، قاصدةً مضارب بني معن .

ورغم جمال ذلك الصباح البهيّ ، لم تكن طريق القافلة مفروشةً بالورود ، وإنما كانت محفوفةً بالأخطار . فحياة الجاهلية كانت تحوّل تلك الطبيعة البريئة إلى شرّ وبغي وعدوان . إذ ما إن سارت القافلة يوماً ، حتىٰ انقضّت عليها عصابة من عرب البوادي ، ونهبت وسلبت وقتلت ما شاء لها إجرامها أن تفعل .

وكان مع القافلة غلامٌ حدث السن ، تلوح على محياه الجميل سمات الشرف ونبل الشيم ، وتبرق عيناه بفطنةٍ وذكاءٍ ، الأمر الذي أغرى أحد الغزاة المجرمين ، بخطفه من حضن أمّه . وأخذه الغزاة مع كل ما نهبوه من القافلة ، ولم تجدِ استغاثة الأم وبكاؤها وتوسُّلها نفعاً .

ولم يكن ذلك الغلام سوى زيد بن حارثة . وأمّه سعدى بنت ثعلبة أحد سادة بني معن . أما أبوه فهو الحارثة بن شرحبيل الكلبي الذي يعد من أشراف بني كلب .

عادت الأم المسكينة والألم يعصر قلبها ، وعاشت

حياتها في حسرةٍ ولوعةٍ علىٰ فقد وليـدها الـذي لم تجدِ كل محاولات البحث التي قام بها الأب المفجوع بولـده أي جـدوى . وبقي كل من الأب والأمّ يتجـرّعـان الألم والغصّة . . فقد أحبا ابنهما حباً يفوق التصـوُّر ، وما من سبيل إلى نسيانه .

أمـا ما جـرى لـزيـد ، فيقـول الـراوي ان أولئـك الأشـرارْ أخذوه إلى سـوق عكاظ ، القـريب من مكـة ، وباعوه في سوق الرقيق .

ولكن لـطف الله شاء أن يشتـريه رجـلٌ كـريمٌ من الأشراف ، هو حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي .

وزادت العناية الإلٰهية لطفها بذلك الغلام ، إذ رأته سيدةٌ طاهرةٌ ذاع صيت عفّتها ومكارمها بين الأشـراف ، وهي خديجة بنت خويلد الأسدي . وقد أعجبها زيـد ، فاشترته من ابن أخيها حكيم بن حزام بأربعمائة درهم ، فكان مولاها (أي العبد الذي ينسب بالولاء إليها) وفيما بعد ، وهبته لزوجها الصادق الأمين محمد (ص) .

وعاش زيد في كنف الرسول (ص) فوجد لديه ما عوَّضه عن حنان أمّه وحبّ أبيه وكل عشيرته ، وكان يتلقىٰ التربية والحنان والعطف والمعاملة الكريمة التي لن يحظى بها عند أمّه وأبيه . الأمر الذي جعل زيداً يتفانى في حب الصادق الأمين ، ويسهر على خدمته .

وبلغ من أمر حب زيد لرسول الله (ص) أنه رفض العودة إلى حضن أبويه وفضَّل البقاء مع النبي الكريم . فقد عرف أبواه ، بعد بحثٍ طويلٍ ، أنه مولى للصادق الأمين فأسرعا بالقدوم إلى مكة . وطلبا من رسول الله أن يشتريا منه ابنهما زيداً بعدما أعلماه بمدى حبهما له وأنهما لم يقرَّ لهما قرار منذ فقداه . فما كان من الصادق الأمين إلا أن رفض المساومة ، وقال لهما انه يهبه لهما من دون مقابل ، ولم يفاجأ الأبوان بموقف محمد (ص) ، وقد طبّقت شهرته بالكرم والشهامة كل آفاق الجزيرة ، إلا أن الذي فاجأهما هو موقف ابنهما زيد الذي رفض بشدةٍ وإصرارٍ ترك خدمة محمد (ص) والعودة إلى والديه ؛ الأمر الذي أضطرهما إلى العودة

خاويـي الوفاض ، وهما لا يصدِّقان ما حدث ؛ إذ كيف يفضِّـل ابنهما العبـودية عنـد محمد (ص) علىٰ الحـريـة عندهما . ولهما الحق في ذلك فهما لا يعلمان أن الحياة مع محمد (ص) هي الحرية الحقة ، وأن محمداً (ص) لا يمكن لمن يعيش في كنفـه أن يكون عبـداً حتىٰ وإن اشتراه من سوق العبيد ، بل يعيش معه وهو يملك الحرية الحقة .

أما ردود فعل الصـادق الأمين علىٰ موقف زيـد ، الذي أذهل الجميع ، فكان أن أخذ زيداً بيده حتىٰ أتىٰ به الملأ من القوم ، وأعلن لهم أنه أعتقه ووهبه حريته ، وأنه يتبنّاه كابن له ، وطلب من الجميع أن يدعوه زيد بن محمد .

وعاش زيد مع الرسـول (ص) قبل البعثـة النبويـة ليكتسب الأخـلاق الفـاضلة ويتلقىٰ التـربيـة السـاميـة والتهـذيب الخلّاق . . ونشـأ نشأةً لا تتـاح إلّا لذي حظٍّ عظيم .

وحين بُعث رسول الله (ص) بالنبوة الشريفة ، كان

زيد أول من أسلم من الموالي وكان له النصيب الأكبر في تحمل البلاء والأذى الذي لاقاه رسول الله (ص) من المشركين . وكانت تلك المحن القاسية تزيد من صقل شخصيته وهو حين يشاطر رسول الله كل تلك المصائب يتمنىٰ لو أنه يستطيع أن يدفع عن رسول الله (ص) كل أذى ولو يفديه بنفسه .

وزيد لا ينسى ذلك اليوم الذي خرج فيه مع رسول الله (ص) إلىٰ الطائف ، لعل الرسول (ص) يجد فيها من يلين قلبه للإيمان . . . حيث أخذ النبي (ص) يدعو أبناءها إلىٰ دين الإسلام لكنه وجد قلوبهم كالحجارة ، بل هي أشد قسوة .

فقد لاحقوا الرسول الكريم يرمونه بالحجارة ، وزيد يحاول أن يدفع عنه ، وهو لا يرىٰ إلا الحجارة تتساقط علىٰ الرسول (ص) إلى أن التجأ النبي العظيم (ص) إلىٰ بستان والدماء تسيل من قدميه الشريفتين ، وهناك راح يدعو الله . وكان لا بدّ لزيد ،

وقد بلغ مبلغ الرجال ، أن يفكِّر في الزواج ، وذلك كي يجد نفساً طيبةً يأنس بها . وصدراً حنوناً يسكن إليه .

ولكن من يختار يا ترى ؟

ولم يطل به التفكير ، فها هي « أم أيمن » حاضنة رسول الله (ص) ، التي شهدت ولادة رسول الله (ص) ورعت طفولته وشبابه لم تتزوج حتى الآن . وكان رسول الله (ص) يحبها ، وقد أعتقها ووهبها الحرية ، وهي إحدىٰ السابقات إلى الإسلام ، مؤمنة تقية نقية ، وهي أمَةٌ « عبدة » حبشية . وكانت تدعىٰ « بركة الحبشية » . وكان زيد يعلم أن زواجه من تلك المرأة الصالحة سيفرح رسول الله (ص) ، فقام من فوره وخطب « أم أيمن » من رسول الله (ص) وتزوجها ، وأنجبت له « أسامة بن زيد » ، ذلك القائد العظيم .

وبدأت معالم الدعوة تترسخ وكلمة الله تعلو عبر الإنتصارات التي حققها المسلمون في كل المعارك التي

شارك فيها زيد بن حارثة ، ولم تفته معركة واحدة منها ،

وقد أظهرت حروب الإسلام ، في زيد ، ميزة جدية ، إذ

أوكل إليه أمر القيادة في عدة غزوات وسرايا . وكان يرجع من كل غزوة وسريه ، منتصراً ، إلىٰ أن ترسخت دعائم دولة الإسلام الفتية التي بدأت تقلق بال الدول الكبرىٰ ، فيخاف الملوك والأكاسرة على عروشهم التي أحسوها تتزعزع تحتهم ، لما سمعوه عن قوة الإسلام الباهرة النابعة من الإيمان بالله والتوحيد .

لذلك قررت الإمبراطورية الرومانية القضاء على هذه الدولة ، وهي لا تزال فتية ، وقبل أن تقوى ويشتد ساعدها ، فأعدّ إمبراطور الرومان جيشاً من مائة ألف مقاتل ، من المقاتلين الأشداء ، وطلب من قائد جيشه أن يقضي علىٰ هذه الدولة الجديدة التي لا تدين إلا لله والتي غدت تهدِّد الإمبراطوريات .

وجهَّز الرسول (ص) جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مجاهد ليردوا جيش الرومان وينطلقوا إلىٰ موقع « مؤتة » ، ويباغتوا الرومان قبل أن يصلوا إلىٰ المدينة .

ولما كانت هذه المعركة من الأهمية بمكان ، فقد

اختار الرسول قادةً لهذا الجيش ثلاثة من الرجال الأبرار نذروا أنفسهم لله ، وتربوا علىٰ يد رسول الله (ص) واقتبسوا من أنوار النبوة . .

ووقف النبي الكريم (ص) ، وهو يجهز الجيش ، قائلاً :

ـ « الأمير عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة » ثم عقد اللواء لزيد ، وقال :

ـ « انطلقوا على بركة الله » .

وانطلق جيش الإسلام يقطع المفاوز والقفار ، إلى أن وصل إلىٰ « مؤتة » . وحينما علم المسلمون أن جيش الأعداء قد احتشد لهم ، بمائة ألف مقاتل ، لم يزدهم ذلك إلا شجاعةً وإقداماً .

والتحم الجيشان ، وكان قائد المسلمين وأميرهم يصول ويجول ببطولة منقطعة النظير لا يبالي بكثرة السيوف والنبال والرماح التي تحوطه من كل جانب ، وهو يصرخ :

ـ لبيك أللّهم لبيك . . لبيك أللّهم لبيك .

وبعد طول قتال ، سقط الفارس ، وقد امتلأ جسده بأوسمة خالدة من جراحات لا تعد . وخضب الدم الزكي أرض « مؤتة » ليتسلم بعده الراية جعفر بن أبي طالب الذي قاتل ببسالة كي يحقق النصر للمسلمين ولتُهزم الإمبراطورية وجيشها الهائل .

أما رسول الله (ص) ، فقد كان يتابع ، وهو في مجلسهَ في المدينة ، المعركة لحظة بلحظة وكأنه في وسطها ، بقدرة الله . وكان المسلمون جلوس حوله في وجوم وصمت . . ثم ما لبثت أن غشيت وجه الرسول المشرق الوضاء سحابة من الحزن والأسى ، وقال للمسلمين الملتفين من حوله :

ـ استغفروا لزيد . . . لقد دخل الجنة وهو يسعىٰ ، واستلم الراية جعفر بن أبي طالب ، ومضىٰ يقتحم بها صفوف المشركين .